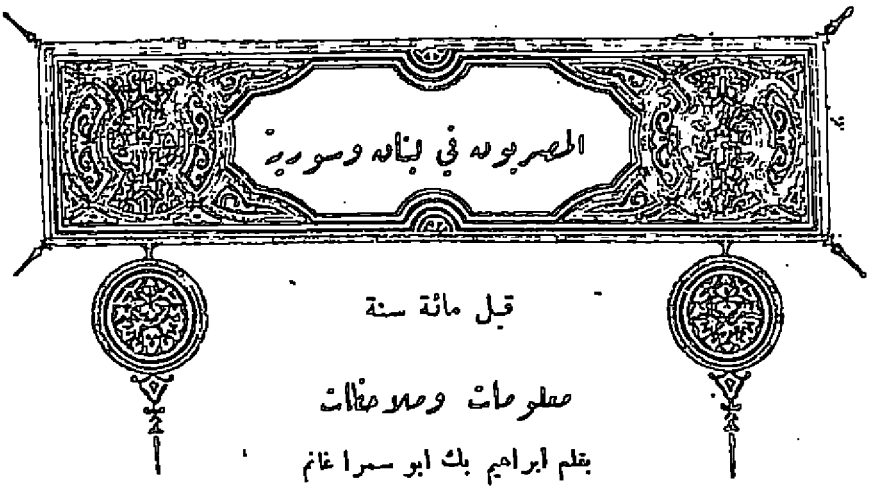

قبل مائة سنة

معلومات وملاحظات

بقلم ابراهيم بك ابو سمرا غانم

١

هذه السنة التذكار المئوي لدخول المصريين بلادنا بقيادة ابراهيم باشا الفاتح الشهير . وقد نجم عن ذلك الفتح نتائج اجتماعية وادبية وسياسية من حسنة وسيئة ، منها ما اضمحل بجلاء الجيوش المصرية ، ومنها ما لا يزال اثره باقياً حتى اليوم . فرأينا ، بهذه الموافقة ، ان نورد بعض معلومات وملاحظات عن ذلك الفتح نخالها تفيد القرّاء الكرام وتلذّ لهم :

الاستيلاء على لبنان وسوريا

بعد ان ظفرت الجيوش المصرية التي كان يقودها ابراهيم باشا واخوه طوسون ، ابنا محمد علي ، بالوهابيين الذين كانوا يُغيرون على البلاد الحجازية ويتعدّون على قوافل الحجّاج ، فكّر محمد علي بانشاء جيش منظّم على الطريقة الاوربية . فعهد بالامر الى الكولونيل سيف الفرنساوي الاصل ، الذي صار فيما بعد سليمان باشا ، فنجح هذا في مهمّته . وقد انشأ ايضاً في الاسكندرية مجريّة ، وفتح في القاهرة معملاً لصنع الاسلحة والمدافع وسائر المعدّات الحربية . وقد قام بجميع هذه الاعمال رجال اختصاصيون من الفرنسويين . انما جميع هذه المشاريع اعوزتها الاموال الوافرة واكرهت محمد علي على وضع الضرائب على المصريين الذين ما لبثوا ان شكوا من فداحتها . وكان الفلاحون يساقون

سکھر ابراہیم بابا امام باغ

قسراً إما الى الجندية وإما الى المصانع ، فانفرت منهم الديار والمزارع ، وفرّ نحو عشرة آلاف شاب الى خارج القطر ويتم معظمهم سورية ، وخصوصاً ايالة عكا التي كان يحكمها عبدالله باشا.

ولما اعان محمد علي الدولة العثمانية في حرب المورا ، اخذ وعداً من الباب العالي باستلام ولاية سورية مكافأة له . ولكن السلطان اخلف بوعده . ففكر العزيز في ايجاد سبب للاستيلاء على سورية ، فكتب الى عبدالله باشا يسأله ان يُعيد اليه المصريين المهاجرين . فأبى هذا مدّعياً ان المصريين هم ايضاً من رعايا الدولة العثمانية وان لهم الحرية في الاقامة حيثما يشاؤون في البلاد التي تظلّلها اعلامها.

وكان الباب العالي ، قبل بضع سنين ، قد اصدر امراً بفصل عبدالله باشا من ايالة صيدا ، فشفع به محمد علي اجابةً لرجاء الامير بشير ، حاكم لبنان ، فاعيد الى ولايته. وقيل ايضاً انه كان قد اسعفه بمال جزيل أرضى به رجال الدولة ، ومعلوم انه لم يكن يتمّ امرٌ في تلك الايام في تركية بدون ان يمثل المال دوره ، فطالبه به ، فابى دفعه . فرأى حينئذٍ ان الفرصة قد سنحت له لتنفيذ ما كانت تصبو اليه نفسه ، ولا سيما ان الدولة كانت في تلك الايام منهوكة القوى خائرة العزيمة بعد المصائب التي حلّت بها إثر ثورة علي باشا ، حاكم يانيا ، وغب ثورة اليونان التي عضدتها فيها فرنسة وانكلترة فنالت استقلالها التام ، بعد ان حكم الاتراك فيها منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وفضلاً عن ذلك فان السلطان محمودًا كان قد بطش بالانكشارية فنقد الجيش العثماني بهلاكهم ما كان باقياً له من القوة والصولة . . .

في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٨٣١ ، زحفت الجيوش المصرية برًّا على الاراضي الفلسطينية ، وخرجت في الوقت نفسه العمارة المصرية من الاسكندرية ووجهتها الشواطئ الفينيقية ، فرابطت امام عكا . وتراجع عبدالله باشا امام المصريين الذين كان يقودهم ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوي . واستنجد بالسلطان فورده الجواب يستحثه على الثبات ، ويعده بالنجدات . ولكنه لم يفعل بينما كان محمد علي يداوم على ارسال الرجال والاعتدة الحربية الى ولده .

وقيد دام الحصار نحو سبعة اشهر أظهر فيها المدافعون عن عكا بسالة فائقة . ولكنهم غلبوا اخيراً على امرهم ، فاستولى ابراهيم باشا على المدينة ، ودخلها ظافراً في السابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٨٣٢ بعد ان خسر من جنوده اربعة آلاف مقاتل . وكان المدافعون عن عكا جنوداً من الارناووط والاتراك ، ولو انجدتهم الدولة العثمانية بالقوات لعجز المصريون عن فتحها . ولو كان رجال هذه الدولة ذوي يقظة وتحوّط للطوارئ التي كانت تتهدد سلامة المملكة ، ولو كان السلطان محمود تنبه لخطورة موقع عكا في ذلك الحين ، ولو كان رجال السياسة لهم المام بتاريخ الدول ، لادركوا ان عكا كانت في كل وقت تُعدّ مفتاح سورية ، وانه في الاجيال المتوسطة كان اعظم الفاتحين في الشرق والغرب ، كغيليب اوغست ، وريشار قلب الاسد ، وصلاح الدين الايوبي ، والملك العادل وغيرهم يتنازعون السيطرة على مُقفل عكا ، ولكانوا عرفوا ان نابليون العظيم لما شاء توسيع فتوحاته في سورية فكر اولاً بالاستيلاء على هذه المدينة .

وبينما كان ابراهيم باشا يحاصر عكا ، بعث الى الامير بشير شهاب ، والي لبنان وسيده الاكبر ، يبشره بقدومه ويطلب منهُ ان يوافيه الى حيث هو . فلبّى الامير الطلب وجمع رجال لبنان وجاء بهم معسكر المصريين ، فاستُقبل بمزيد الفرح والابتهاج . ولا يخفى ان نجدة الامير ورجاله اللبنانيين لابراهيم باشا قد جاءت معزّزة لجانبه ومسهلةً لفتوحاته وتوغله في داخلية بلاد الاناضول .

وقبل ان يتمّ الاستيلاء على عكا ، زحف الجيش المصري واحلافه اللبنانيون على المدن الساحلية ، فاحتلّوا صور وصيدا في الرابع عشر من كانون الاول سنة ١٨٣١ ، وفي العشرين منه دخلوا طرابلس . واما دمشق فاستولوا عليها في السادس من شهر حزيران سنة ١٨٣٢ بدون مقاومة .

ولما بلغت الحملة المصرية مدينة حمص ، اشتبكت بالقتال مع العساكر العثمانية التي كانت بقيادة محمد باشا ، والي حلب . وكان عدد العثمانيين خمسة وعشرين الفاً وعدد المصريين عشرين الفاً . فانتصر المصريون ودخلوا المدينة في الثامن من شهر تموز سنة ١٨٣٢ .

ثم تقدم الفاتحون الى بيلان فادركوها في التاسع والعشرين منه ، وكانت قد اجتمعت فيها فلول العساكر العثمانية ، فدارت بين الفريقين رحى الحرب . وكان يقود العثمانيين السردار ومشير الاناضول حسين باشا . فكلل النصر هام المصريين . وفي الواحد والعشرين من كانون الاول ، جرت المعركة الكبرى بين الجيشين المتحاربين في قونيه . وكان رشيد باشا ، المعدود من اكبر رجال الحرب في تركية ، يقود الجيش العثماني البالغ عدده نيف وستين الف مقاتل . وكان ابراهيم باشا يقود الجيش المصري ، ولم يتجاوز عدده الثلاثين الفاً . فتأججت نيران الحرب وحمي وطيس القتال وتصادم الفريقان متلاحمين ، فخرج المصريون منصورين ظافرين ، وولى العثمانيون من امامهم مدبرين لا يلوون على شيء . وقد اسر العرب الموالون لابراهيم باشا رشيد باشا وجاؤوا به اليه . وبلغ عدد قتلى العثمانيين ثلاثة آلاف رجل ، وأسر عشرة آلاف . وقد جاء هذا النصر اعظم الانتصارات التي حازها ابراهيم باشا منذ زحف على سورية .

ولما بلغت اخبار هذه المعركة دول اوربة ، اهتمت لها كل الاهتمام . وامتعضت روسية وانكلترة من فشل الدولة العلية وخشيتا من تقدم المصريين الى الاستانة ، وتحفزتا للحؤول دون ذلك . فرأت فرنسة التي كانت ترمق الفتوحات المصرية بعين الرضى والارتياح أن تضع حداً لمطامع محمد علي خوفاً من حرب اوربية طاحنة ، فتداخلت في الصلح بين التابع الغالب والمتبوع المغلوب ، وعرضت على محمد علي ولاية سورية ، فلم يرضَ وطمع ايضاً بالولاية على الاناضول . وبعد مخابرات طويلة تمّ الرضى على ان توافق الدولة العثمانية على ولاية محمد علي على مصر وكريت ، مع اضافة البلاد السورية وولاية ادنه الى حوزته ، وعلى تجديد ولاية ابراهيم باشا على جدة ، وعلى منحه لقب شيخ الحرم المكي الشريف . وقد عقد الصلح في مدينة قوتاهية في اليوم الرابع من ايار سنة ١٨٣٣ بين السلطان محمود ومحمد علي . وناب البارون روسين ، سفير فرنسة في الاستانة ، بالتوقيع عن السلطان ؛ وناب ابراهيم باشا

بالترقيع عن ابيه . وتضمن هذا العقد ايضاً تعهد محمد علي بان يدفع لخزينة الدولة الاموال التي كان يدفعها الولاة السابقون.

اجراآت ابراهيم باشا في سورية

عندئذٍ انسحب ابراهيم باشا بجيوشه من بلاد الاتراك الى سورية ، واخذ يهتم بالشؤون الادارية . فغيّر تقسيم المقاطعات والولايات ، واوجد لها ترتيباً ادارياً جديداً . فجعل نفسه حاكماً عاماً وقائداً اعظم . واقام شريف باشا ، احد اقربائه ، والياً على الشام وعلى برية سينا ، ومنحه لقب حكمدار عربستان . ونصب متسلماً على عكا الشيخ حسين عبد الهادي النابلسي . وفوّض الى الامير بشير تولية من شاء من اقاربه على صيدا وصور وبيروت وطرابلس . ولكن لم يلبث ان رجع عن هذه المنحة ، فعزل الامراء الذين ولّاهم الامير بشير على هذه المدن وسلّمها الى بعض رجاله.

ثم سلخ صيدا عن عكا ، وولّى عليها سليمان باشا الفرنساوي . ويا ليت جميع الحكام الذين ولّاهم كانوا على مثال هذا الرجل ! لانه برهن على انه الاداري الحكيم كما برهن على انه القائد الباسل الهمام . وقد جعل حنا بك البحري المسيحي مديراً عاماً للحسابات ، وما زال يرتقي هذا في المناصب حتى نال رتبة امير آلاي . ولما اقام على كل مدينة متسلماً اوجد فيها وظيفة مباشر اناط به ادارة الاموال والحسابات ، والّف ايضاً في كل مدينة عدد سكانها من عشرين الف نفس فما فوق مجلس شورى من اعيان جميع الطوائف ؛ فكانت عدتهم في الشام واحداً وعشرين من المسلمين والنصارى واليهود ، وفي بيروت اثني عشر وقد ذكر كتاب « حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول » اسماءهم ، فكانوا من المسلمين : عبد الفتاح حماده ، وعمر بيهم ، واحمد العريس ، وحسن البربير ، وامين رمضان ، واحمد جلول . ومن المسيحيين : جبرائيل حمصي ، وبشاره نصرالله ، والياس منسى ، وناصيف مطر ، ويوسف عيروت ، وموسى بطرس.

وكانت قرارات هذه المجالس في المدن تُستأنف الى مجلس شورى عكا ، او مجلس شورى دمشق ، وعند اللزوم كانت تُميَّز الى القاهرة.

وانشأ محاكم مدنية للنظر في القضايا الحقوقية والجزائية ، ومحاكم شرعية لفصل المنازعات المذهبية.

ولا ريب في ان هذه الترتيبات والتقسيمات قد وُضعت عن حسن قصد ورغبة اكيدة من مُوجدها في السير في سبيل الخير العام وتوفير اسباب رُقي البلاد ونجاحها . ولكن يا للاسف لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر الخلل في تطبيق هذه التنظيمات ، إمّا عن جهل المأمورين واجباتهم ، واما عن سوء استعمال الوظيفة . فانهم استبدوا كل الاستبداد في الرعية ، فساموها خسفاً وظلماً ، ولم يجدوا باباً لابتزاز اموال العباد الّا ولجوه ولا طريقاً الّا سلكوه . وقد استنبط بعض الولاة اساليب شيطانية للكسب لم تخطر على البال ، فكانوا يتاجرون باللحوم والفواكه ، ويحتكرون الحاصلات ثم يبيعونها بالمزاد العلني ، ولم يكونوا يسمحون لغير الذين اشتروا منهم ان يبيعوا ما عندهم الا بعد ان يفرغ الذين اشتروا من بيع ما اشتروه . وكان المحاسبون والمباشرون الموكول اليهم جمع الاموال يجرون على هذا المنوال . ولقد تطرق ايضاً هذا الفساد الى مجالس الشورى ، فجاء وجودها اكثر ضرراً من عدمه.

كانت الحكومة المصرية في بدء احتلالها البلاد قد اذاعت بين السكان بلاغاً اعلنت فيه عزمها على تخفيف الضرائب عن كواهل الشعب . ولكنها ما عتمت ان اثقلت مناكبهم بضرائب جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فوضعت مال الفُردة ، ومال الدخوليات ، واحتكرت حاصلات الحرير ، وتظاهرت بالغاء الاعانات التي كان يتقاضاها الحكام في عهد الحكومة العثمانية . بيد أنها في الحقيقة لم تُلغِها الا لتحدث ما يعادلها او يفوقها ، فوضعت ضريبة خاصة على التوت وكافة الاشجار المثمرة كالزيتون وغيره لا تقل عن خمس غلّتها . ولم تُستثنَ منها المغروسات الجديدة ، وهو حيف ضاق الناس ذرعاً عن احتماله فامتنعوا عن غرس الاشجار المثمرة.

اما الفُردة[1] ، وما ادراك ما الفُردة ! فهي الضريبة الملعونة التي حاجت لها الخواطر وتألمت من قداحتها النفوس . وقد كانت عبارة عن مال وضع على اعناق الذكور الذين تجاوزوا الرابعة عشرة من عمرهم الى الستين منه ، وكانت تؤخذ منهم حسب مقدرتهم بنوع انها لا تقل عن خمسة عشر قرشاً على المكلف الفقير ، ولو كان معدماً ومتسولاً في الشوارع يستندي اكف الناس ، ولا تزيد عن الخمسمائة قرش على المكلف الغني . والذي زاد في الطين بلّة هو انه لما نقص عدد المكلفين ، إمّا بسبب الوفيات في الحروب او من الامراض واما بسبب المهاجرة الى البلاد القاصية ، أوجبوا على الاحياء دفع المال المتوجب على الذين توفاهم الله او هاجروا . فمن كان في الاصل يدفع مثلاً خمسمائة قرش اصبح يدفع الفاً او الفاً وخمسمائة وهو ظلم فادح .

اما ضريبة الشونة[2] فكانت عبارة عن تكليف الاهالي تقديم حاجات الجيش من الحبوب والسمن والزيت ، ونقلها من بلدتهم الى اقرب شونة عسكرية ، إمّا على دوابهم او على دواب يستأجرونها بمالهم . ومن تأخر عن الدفع وعن جميع ما كان يطلب منه من التكاليف كان يُلقى عليه القبض ويزج في اعماق السجون ، بعد ان يوسع ضرباً ويُسام جميع صنوف الاهانات والتعزير . وقد ادى الامر بالكثيرين الى الفرار فاقفرت المدن والقرى ، ولجأ الكثيرون الى الجبال العالية يقتاتون باعشاب البرية ، يفترشون الارض ويلتحفون السماء ، ويلعنون دولة كانوا يظنونها الصديقة الرحومة فاذا هي العدوة الظالمة .

(له صلة)

---

١) لم اهتدِ الى اشتقاق هذه الكلمة ، أتكون تصحيف فريضة ؟ وقد جاء في محيط المحيط للعلم بطرس البستاني : الفُردة عند المولّدين ضريبة توضع على الراس .

٢) جاء في المنجد للاب معلوف اليسوعي : الشونة مخزن الغلة .